الكذب

بقلم الاب فليكس سوانيون اليسوعي

١ : العبرة بنت الثقة

نحن نستمع الى الصوت ولا نحلم في الاعجاب به، لاننا لا نعجب بالمبتذل من القول ونعني بذلك ما هو دارج على الالسنة ورائج، ولكن لما اراد العلما تفسير الكلمة المتلفظ بها رأوا انها شيء غريب مدهش فكان لا بدّ لهم من الاستعانة بعلم الابدان وعلم وظائف الاعضاء والفيزياء وعلم المستحاثات لاكتشاف كيفية طرق تركيبها وأصولها .

وفي اثناء الملايين من السنين لم يكن لمصادمة القوى المادية دويّ ما في الاحساس الذي لم يكن له وجود على سطح الارض ، فاهتزاز اللامتناهي في الصِغَر اهتزازًا منسقاً ينتشر في فضاء السموات بسرعة تفوق التصور لم يكن يصادف شبكة عين مطلقاً ، والاهتزاز المنتشر للمادة المتطورة والمتجمدة الذي ينتشر من الاقرب الى الابعد بسرعة تكاد تكون انسانية وقليلة لم يكن يحرك صماخ اذن .

ويقول علماء النفس اليوم إن الصوت والنور هما جواب النفس الحيوانية على ارتجاج المادة المزدوج، وكان القديس توما يجعل شيئاً من النفسانية في الكواكب وفي الشفاف وسيطاً بينها وبيننا . اما نحن وقد زادت العلوم معارفنا فاننا نضع في النفس ذاتها مكان التقاء الطبيعي والحساسية .

وقبل انفتاح اول بؤبؤ لم يكن تراقص الذرات ينير ، وقبل ارتسام اولى مخططات الاذن لم تكن امواج الهواء تعطي صوتاً ، ولم يكن ذلك لا الظلمات ولا الصمت اللذان ليسا الا السلبيين ولا حقيقة لهما الا بالحواس. فالكلمة الخالق قد تمت اذا بنظر الحي (Fiat lux) (ليكن النور) وبالسمع بدأ غناء الطبيعة .

وعلى ممر العصور الجيولوجية وفرت لوحة الالوان ، فالازهار التي ازدادت جمالا اجتذبت عيوناً ازدادت شيئاً فشيئاً جمالاً ، وقد كان غناء الطبيعة كجوقة نامية ذلك ما يقوله كودري (Gaudry) ان حشرة « الدقونين » تدفع بصريرها الرتيب ، والطيور ما بدأت بعد موسيقاها العظيمة ، ويتم اتقان الاذن لتلتقط اشد الاصوات ثراً ويدق الصماخ شيئاً وشيئاً حتى اللبونات .

وان حواس اللمس لا ترشد الحيوان الا الى مـا يقع مباشرة في جواره ويكتشف بالنور ما هو ابعد وابنا. جنسه واعداءه وفرائسه ، فقد كان بمقدوره ان يكتشف النجوم ولكنها لا تهمه ، اما الصوت فيحمل اليه رسالة تتصل به ، انه يتأتى من عمق الموجودات ويظهرها خير مما تظهرها الالوان ، انه يأتي ايضاً عن آخر وعن قرين وعن صغير ويصدر من جماعة وينقل رغبات ومؤثرات .

والحيوان عاجز عن احداث النور ، وانما لديه آلة صوتية تصل عند بعض الانواع الى مرتبة مدهشة .. فما الفائدة منهـا ؟ فالصوت والنور ينتظران النفس الانسانية لينجزا حقيقتهما صنما لاجله .

لقد تغنى الشعر باختراع النار الذي كان بدون ريب فجأة وربما نتيجة لمصادفة. اما اختراع الكلام فمن يحدثنا عنه ؟ لقد تحدثنا عنه نحن في احد ايام حداثتنا وهذه الذكرى اضمحلت في طيات ما قبل تاريخنا ، ويتحدث مؤدبو ماري هورتين (Marie Heurtin) وهيلين كيلر (Hélène Keller) عن الدهشة التي اثارها في كليتهما اكتشاف علامة فكرية ، وكان لا بد لآدم ان ينطلق مبتدئاً من هذه النقطة ولكنه لما رأى الطبيعة مباشرة عامة بعد ذلك في إمثاله (الشكل والتصور العقلي في المادة) اومأ الى ذلك بالحركة وبالصوت .

وان القدرة على ابلاغ فكرته الى سواه قد اضطرتـه الى الاستزادة من التفكير ، ومن هذه النقطة انطلق كل شيء : الاشتراك في الافكار والعواطف وفي الحضارة والعلوم والفن ... اما الاعمى فتاعس واتعس منه الاصم : فالعالم الذي يرى ظاهراته يظل غير ممكن لديه فهمه : « اننا لسنا بشراً ولا رابط يصلنا ببعضنا بعضاً سوى بنات الشفة » (Montaigne. Essai, I, ch. 9) . ان الطفل هو الكائن الذي لا يتكلم فهو لن يخرج حقاً من الحيوانية الا بالكلام.

٢ : تدنيس بنت الشفة

لقد تركت الانسانية النفس فريسة الانخداع بالكذب الشيطاني ، فظل سمّ الحية وغريزة الخداع الملتوية في عروقها .

وقال قايين يوماً لاخيه هابيل وكان طيباً قد تصنع اللطف مظهراً له الود: « هلمَّ نذهب في نزهة » وكان قصده ان يفتك به ويرديه .

فلا نحاولنَّ رواية تاريخ الكذب على ممر الاجيال، فهو بحكم الطبع يحمل اسمه عن جدارة باصله ، وانما يكفينا ان نرى نفسنا اين نحن منه الآن وذلك بعد عشرين قرناً من المسيحية وعلى رغم تقدمنا المادي والعقلي .

ومن اقوال احد المربّين الانكليز : انه يعرف صنفين من الاولاد: الذين يقولون نعم، والذين يقولون لا (boys of yes) و (boys of no) . اما الامر فليس بهذه البساطة فيما يتعلق بالبالغين. فبالاستطاعة ان نقسمهم الى فئتين بالنظر الى قضية الصدق في القول ، فان الفئة الاولى منهم هي التي تنفر نفوراً فطرياً من الكذب ، ولا قدري كيف يستطيع الانسان ان يفكر بصورة ويتحدث بصورة غيرها وكيف يبحث عن الظهور بغير ما هو عليه ، فهذا التلوّن بلونين يقع عليها وقع تفكك النفس وتزيقها والعار الذي لا يمحى، فهي قأبى التضحية بوحدة نفسها الجميلة ولو اعطوها جميع ما في العالم . ورجال هذه الفئة هم من ذوي النظر الجليّ ولا تخفى علينا معرفتهم سريعاً،وانه لمن البهجة الحياة معهم .

وعلى عكس هذه الفئة هناك اقوام تعوّدوا المهارة في الكذب ، باستخدام الكلام في نظرهم ليس ذريعة لنقل افكارهم وانما هو ذريعة لعمل ما ، فاذا ما تحدثوا فانهم لا يتحدثون ليظهروا انفسهم وانما ليخلقوا في غيرهم وضعاً نفسانياً يستطيعون الاستفادة منه ، فكذبهم ينبغي ان يظل مستوراً ولا يهمهم الا ان لا يفتضح فذلك منتهى اربهم وغاية مهارتهم ، فيا لهم من رجال يخشى شرهم اذا لم يكن من السهل معرفتهم .

وثمة ايضاً فئة اخرى امرها بينَ بين وهي اوفر عدداً وتشمر كل الشمور ببداءة الكذب ولكنها ليست مزوّدة بالشجاعة الكافية لتنبذه ظهرياً. وعلى كل فانا اعتقد ان في يومنا القائم انزلاجاً الى اليسار ونحو الكذب المعتاد .

ولقد اصبح الكذب هيناً جداً .

في الاسرة : للتمرد بدون تثريب واخفاء لعدم الامانة .

في البيئة : تفادياً عن الخجل وفي سبيل اكتساب الاحترام بثمن بخس .

في التجارة : لجرّ المغانم الكبيرة بدون جهد يذكر وللقضاء على المنافسين.

في الحياة المدنية : للفوز بوظيفة والاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها والا فما هي المعركة الانتخابية ؟ انها شيء آخر غير الانتفاخ والاستطابة !

في السياسة الدولية : لقد استفاض الكذب استفاضة عالمية واستطار، فان الديبلوماسية ما كانت يوماً ما قط مدرسة استقامة على حين ان رجال الدولة السابقين كانوا على شيء من الصدق من تصرفاتهم وكانوا يجهدون لاتقاء المظاهر كما في قواعد التهذيب بين الناس. اما اليوم فقد ادار عدد كبير منهم الظهر الى كل استحياء فزال ماء وجههم وغدوا اذا ما نطقوا ولا سيما في سبيل دعايتهم الداخلية والخارجية يثرثرون العالم بما يناقض الحقائق وبالاختلاق والتخرّص وغدت صحفهم جميعها تسير مقتفية نهجاً واحداً ، واضحت كتب تاريخهم التي يضعونها في ايدي الناس مزوقة واحدة مخزية ومهزلة مضحكة تستهم الشبان .

ولقد كنا نأمل ان يكون قصر العدل الموئل الاخير للصدق ، اما القضاة فما برحوا يطلبون الى الشهود اليمين على انهم يقولون الحقيقة كل الحقيقة ولا شيء غيرها ، راننا لنعلم نتيجة هذه اليمين ، فقد اصبحت المحاكم في بعض قطاع الارض المختبر الذي يصطنع فيه الكذب، فهم يصطنعون الشهود الزور بالجملة ، وبلغ بهم الحدّ الى اكراه الاولاد الابرياء على اتهام ابيهم وامهم بهتاناً وبطلاً ، وهم ينوّمون الجماهير تنويماً مغناطيسياً ليطالبوا بقتل البريء ، ومما هو ابشع من هذا انهم يُكرهون المتهم على النمّ عن نفسه ، فهم لم يخترعوا فقط ما سموه (مصل الحقيقة) المزعوم ليقتحموا مستودع الضمير ويهتكوا حرمة اعمق اسراره بل حطموا الضمير نفسه ولاشوا الشخصية وارغموا الناس التائهين المساكين على تسويد انفسهم وتلطيخها باقبح ضروب العار امام الجمهور كانهم حيوانات مسرّمة مروّضة كل الترويض على ذلك ، اما في الدول الجماعية (الديكتاتورية) فقد تدنيس بنات الشفة تدنيساً كاملاً ، وهم يدعون ان هذا الامر هو الذريعة الطبيعية لتمدين شعب واعداده الاعداد اللازم للفردوس الارضي الجديد .

٣ : منافاة الكذب لقواعد الاخلاق

هل من الضروري اقامة البرهان على ان الكذب منافٍ للقواعد الاخلاقية؟ واذا ادركنا ان الكلمة هي آية الآيات وعرفنا الغاية التي توخّتها العناية الالهية منها فهل يصحّ ان نغتفر سوء استعمالها وتدنيسها ؟ ولقد قال مونتاين (Montaigne) الكذب رذيلة نكراء. لعينة اجمع الكل ضمناً على ذلك ، فالكاذب نفسه لا يود ان يوجه اليه هذا النعت .

ومع ذلك وبعد انقضاء ما يربو على اربعة عشرين قرناً من البحث ما برحت خاصة الكذب موضوعاً يمرّن الفلاسفة واللاهوتيون حصافتهم في بحثه ، (P. Creusen, dans la Nouvelle Revue Théologique de 1928, p. 50).

ان ثمّة نظريتين احداهما دائماً على طرفي نقض من الثانية : نظرية الكذب الفردية ونظرية الكذب الاجتماعية .

النظرية الاولى وهي تفخر بالاسمين الكبيرين : اسمي القديس اوغسطينوس والقديس توما الاكويني ، وهذه النظرية وان تضاءل تأثيرها فان بعض اللاهوتيين المشهورين ما برحوا يأخذون بها منطلقين من التعريف التالي : الكذب ، هو ان نقول ما يناقض الذي نفكر فيه ، وعليه ان القول على عكس ما نفكر هو ضمناً منافٍ للاخلاق وان لم ينجم عنه اي خداع ، ان الكذب هو عدم انسياق وجداني شخصي (Cf. P. Brouillard, dans Études, toque 205, p.207) واننا سنرى فيما يلي كيفية البرهان على صغرى القياس اعني ان المعادلة كلمة = فكر هي معادلة لا تخرق حرمتها ومقدسة ؟ واننا نكتفي عادة بتأكيد ذلك كأنه مؤكد من تلقائه ، وكتب الاب فرمرش (P. Vermeersch) في معجم داليس (D' Alès) الجزء الرابع الصفحة ٩٦٤ ما يلي : ان سياق الكلمة الطبيعي (اعني في نظره المعادلة كلمة — فكر) هو مصون لا تخرق له حرمة لان « علاقات البشر المتبادلة التي لا غنى للناس عنها في حياتهم الخاصة والاجتماعية ... تستوجب شرعاً وسيلة للاشتراك بينهم وما من وسيلة لهم الا الكلمة على ان تفهم تحت هذه الاسم كل حركة ذات معنى يشير اليها » . لا بأس بهذه الحجة بيد ان الاب المحترم ينتقل كذلك من الفردي الى الاجتماعي،

وانه لمن غير المنطق اذا ضربت غاية الكلمة وغاية الكذب صفحاً عن العامل الاجتماعي (Cf. aussi sa Theologia moralis, tome 2,n. 703 sq.) .

وان هذا المفهوم الفردي يجرّ على الحياة الاجتماعية نتائج مقلقة ، اما القديس اوغسطينوس فيفرض حالة رجل مريض مرضاً خطراً كان ابنه مريضاً ايضاً مرضاً خطراً ومات بدون ان يعرف به الاب الذي سأل : هل توفي ، فان مصارحته بالصحيح ربما افضت الى موت الاب ، اما السكوت واما اجابته بجواب التهرب فقد يفهم منها انه مات فما العمل ؟؟

ان القديس اوغسطينوس يصرح بارتباكه ، ويختم كلامه بقوله ليمت الرجل ولتسلم الحقيقة .(Moveor his suppositis vehementer. Cf. P.L. 40 543)

وكان لا بد من ايجاد حلّ ما ، فابتدعوا حيلة التحفظ الفكري التي تسمح بفضل الغموض باضمار غير ما نظهر انقاذاً للسر الضروري وللمعادلة كلمة = فكر في وقتٍ واحد .

« هل لديك نقود ؟ــ كلا (اي ليس معي نقود لاعطيكها) ، هل فعلت هذا الامر ؟ــ كلا (اي اني لم افعله اليوم الخ) وحتى انه اذا لم يكن هناك ابهام يستطيع المخاطب الظن فيه فليس ثمة وجود حقيقي للمخالفة بين الفكر والعبارة التامة والحقيقة في نجوة ، وان جميع هذه الامور شديدة التعقيد ولا بد لها من حضور الذهن او حضور الذهن فقط للتخلص من الامر ، ويقول الاب فرمرش (P. Vermeersch) انه اذا كان عدم موافقة القول للفكر حقيقياً وفي حال اليأس من ايجاد السبب فانه يصبح مشروعاً اذا كانت تقتضيه الحياة الاجتماعية : « ان عدم الانسياق بذاته بين القول والفكر ليس الا نفسانياً » وهذا ايضاً عدم انطباق على المنهج الذي يتضح عجزه عن تفسير جميع الحالات .

وينطلق انصار نظرية الكذب الاجتماعية من التعريف التالي : ان الكذب هو سوء استخدام الكلمة القائم على تحويلها عن الغاية النهائية ، ولكن ما هي هذه الغاية ؟ ان الكلام ليس لباس الفكر المحسوس فقط لايصاله الى الغير وانما هو على الاخص مركبته ، فالتكلم هو الاعراب من الوجهة الحسية عن فكرة لايصالها الى غيرنا فنحن لا نتكلم في الهواء او الى انفسنا لان

الكلام عمل اجتماعي بجوهره ، والانسان اذا اوصل فكرته الى غيره فلكي يعيش اجتماعياً .

اذاً فالكذب ايضاً عمل اجتماعي بجوهره وما من كذب الا بالنسبة الى الغير فروبنصون لم يكن بمقدوره ان يكذب .

ولو صرفنا النظر عن السامع فالمخالفة المادية بين الكلمات والفكر لا قيمة اخلاقية لها ، وان العلامة الشفوية لم تتحول عن غايتها الجوهرية . واذا لم تتكلم مع احد فبالاستطاعة التلفظ بعبارات لا تقابل الفكر الحالي كما نستطيع المشي على اليدين لتلعب ، واذا كان المستمع متنبه الى الاختلاق فالامر على ما هو ، وان الممثل المسرحي لا يكذب ، وان الحقيقة هي فكرة مجردة . فالذين يستحقون الاحترام هم الاشخاص : شخصيتي وشخصية غيري .

وان عدم الانسياق الباطني هو واقعي في الكذب ، ولكنه متأت من الخداع الاختياري ومن اسبابه : كالغرور والانانية والخبث . . . وانه الشر الفردي ولكنه قد انجز في عمل اجتماعي مضر بالقريب كشر السرقة والبغض الخ وان ابلاغ فكرنا للغير ليس دائماً واجباً .

وقد يكون لنا الحق واحياناً قد يكون من واجبنا ان لا نبلغه وان نكتمه عن قليلي الرصانة والفطنة وعن اهل الخبث . . . وقد يتفق ان تكون الوسيلة الوحيدة لتجنب افشاء هذا الفكر ان نقول عكسه ، فذلك هو الكذب النفساني اذا شئنا لا الكذب الادبي لان هدفه ليس الخداع وانما صيانة حق فردي او القيام بانجاز فرض من فروض العدل او المحبة .

ولا فائدة من اجهاد النفس لاحترام السياق المادي اي المعادلة الكلمة = الفكر ، وانه لاشد صدقاً ان لا نلجأ الى مخبإ الغموض والاضمار ، فنحن نعرف الرأي الذي تلخصه باسكال من سوء استخدام التحفظ الفكري عند « الآباء » سواء أكان ذلك صحيحاً ام مزعوماً في كتابه البروفنسيال (وهو بشكل رسائل دينية انتقادية) . اجل لقد كان هناك مساوىء واقعية احياناً في العالم بما ان محكمة الايمان اضطرت للتدخل في سبيل نبذها (مرسوم ٢ اذار ١٦٧٩ دترنجر رقم ١١٧٦ و ١١٧٧) .

وعلينا ان نحذر نتائج الكذب النفساني حتى ولو كانت بعيدة اذ انه يقلل من الثقة التي لا يقوم المجتمع بدونها .

وباستطاعتنا ان نقرأ في القاموس اللاهوتي مقالة امان (Amann) بصدد هذا البحث (Article « Mensonge », tome X, col. 555 sq) فانه كان متسامحاً حيال الآخذين بالنظرية الفردية ومع ذلك فقد نبذها ، واني لاعجب من ان يتمسك بعض اللاهوتيين بتقليد يستوحي من الفردية التي غدت في طريق الهزيمة اليوم اينما كان ، (راجع المشرق سنة ١٩٥٣ ص ١٠٠ وما يلي) .

اما امر القديس توما فغريب ، ومن المؤكد ان لاهوته الادبي ليس فردياً فهو يعلّم في (IIa IIae, question 80, puis question 109, articles 1, 2, 3) ان الحقيقة كفضيلة ترتبط بالعدل (Veritas sive veracitas... secundum quod per eam aliquis dicitur verax) وانها خاصة بالغير وتقابل حقاً وبمعنى العبارة الواسع حق غيرنا في الحقيقة ، وذلك مطلب اجتماعي .

ويبدو ان مقدمتي البرهان هاتين تبشران بنظرية الكذب الاجتماعي ، كلا ثم كلا : ان قصد الخداع ليس جوهرياً للكذب (Cf. question 110, article 1). لهذا فينبذ القديس توما حتى الكذب بقصد المفاكهة (ibid. article 3 ad 6 um) وانه معقول . ولكن أأصاب في الانتقال من تعريف الفضيلة الى تعريف الرذيلة. فقد قال في موضوع آخر (IIa IIae, question 71, articles 1 et 2) ان الرذيلة عامة تحددها الفضيلة المناقضة لها .

أفهو الاحترام لتقليد جليل هو الذي ساقه الى هذا؟ وهو مع انه كان امامه قدوات آخرون ليسير وراءهم : فهناك القديس يوحنا فم الذهب والقديس هيلار وغيرهما كثيرون وهم اقل قسوة من القديس اوغسطينوس .

٤ : الكذب اهانة لله

الفكر نور ونور باطني يبيّن الانسان لنفسه ويظهر له العالم ، وفكرنا الانساني مهما يكن متضعاً هو اشتراك بالنور المتجسد نور الكلمة التعبير التام الكامل عن الاب .

لقد جاء هذا النور الالهي الى العالم فاصطدم بظلام الخطيئة ، لان كل خطيئة هي ظلام وكذب عملي وانكار لملك الله الاسمى ونفي لمحبته ونفي لشريعته .

وقال السيد المسيح : انا الحق ، انا النور ، فمن يتبعني لن يسير في الظلام بل يكون له نور الحياة (يوحنا ف ٨ اية ١٢) فالله اللامتناهية جودته واللطيف كل اللطف مع جميع البشر وحتى مع كبار الخطأة التائبين كان يكره كرهاً خاصاً الكذبة والمرائين : (انتم ابناء ابليس ... وهو كذوب وابو الكذب (يوحنا ف ٨–اية ٤٤) وقال لتلاميذه : « احذروا لانفسكم من خمير الفريسيين الذي هو الرئاء (لوقا ف ١٢– الاية ١) ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا » لا تحلفوا البتة (متى ف ٥–اية ٣٧). ولقد سمعه القديس يوحنا في رؤياه ببطموس يقول : « انا الالف والياء ، البداءة والنهاية للكل ، طوبى للذين حفظوا حلتهم نظيفة ... ان ابواب المدينة مفتوحة لهم . ليبقَ خارجاً الكلاب والسحرة والزناة وعبدة الاوثان وكل من يحبّ الكذب ويعمل به (رؤيا ف ٢٢ ، اية ١٣) ومن واجب تلميذ المسيح ان يكون انسان نور وان يجيب بنعم متى اقتضاه الجواب بنعم وبلا متى اقتضاه بلا (يعقوب ف ٥– اية ١٢) وعليه ان يتحلى بالحكمة الضرورية للحياة في هذا العالم الملتوي وان يكون ذا نفس صافية كنفس الطفل .

ان الكنيسة هي الحارس على هذا التعليم الذي ذكر به بقوة رئيسها الحالي المستشعر اخطار الساعة الراهنة وذلك في رسالته لعيد الميلاد سنة ١٩٤٧ :

... وان العلامة الموسوم بها جبين زماننا ... هي الميل دائماً الى المداجاة وتنقّص الصدق تنقصاً لم يبق وسيلة فقط للتخلص من ارتباك في سانحة صعبة طارئة او امام عقبات لم تكن متوقعة بل غدا تنقّص الصدق هذا كأنه قاعدة رفعوها الى مرتبة فنّ حربي اصبح فيها الكذب والتخرّص في الكلام وتمويه الحوادث والمخادعة السلاح الدفاعي المألوف ، حتى مهر بعضهم في استخدامه كل المهارة وبات يفخر بهذه المهارة ، وحتى غدا نسيان القواعد الاخلاقية كل النسيان جزءاً لا يتجزأ من التكنيك العصري في فنّ اصطناع الرأي العام وادارته واخضاعه لمصلحة سياستهم ...

وانه لمن واجبنا ان نفتح عيون كاثوليك العالم برمته... على الاخطار التي تتعرض لها سيادة الزيف هذه الكنيسة والحضارة المسيحية وجميع التراث الديني والانساني ... وفي سبيل الخروج من هذا المأزق ثمة ممر واحد ممكن: العودة الى العقل والى ممارسة التمسك بالصدق الكلي الاستقامة ... Veritas liberabit vos (Jean, ch.8, v.32) (وتعرفون الحق والحق يحرركم) ...

وربما لم يتفق قط ان احدث هذا الصراخ دوياً اشد قوة منه اليوم في عالم متعطش الى السلام وهو يشعر بوطء نير الكذب ينيخ عليه بكلكله ..